

علوبه

الاسلام والديمقراطية

7

321.82

A472A

~~DE 4 53~~

~~JAN 11 53~~

~~JUN 1 62~~

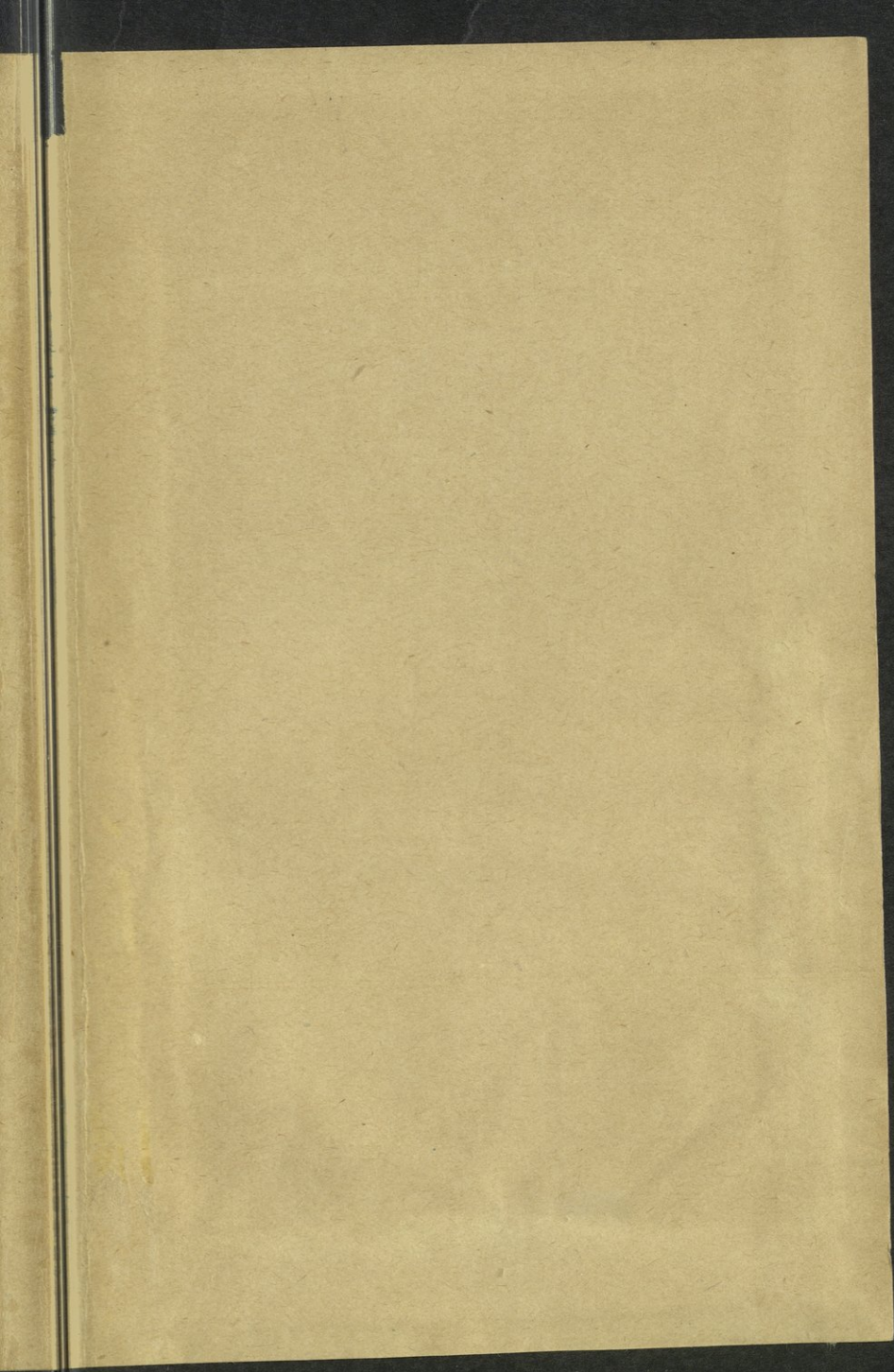
~~JUN 10 81~~

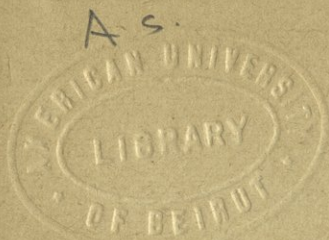
JAFET LIB.

~~4 - JAN 1993~~

J. LIB.

~~7 AUG 1986~~





321.82

A47iA

محمد علي علوبة باشا

السلام والدمية الطبية



« طبعة ونشرته لجنة البيان العربي بأذنه معادة المؤلف »

١٣٦٩ - ١٩٥٠

Cat. 18 Feb. 53



العدل أبو الوطنية وحارسها .

ثروة المرء تهجره بموته . أما شرفه فيؤنسه في قبره .

يقول الناس : إن الاستقلال حق طبيعي للأمم

ويقول التاريخ : إنه جدارة وجهاد .

محمد علي علوبة

بسم الله الرحمن الرحيم

طلب إلى بعض الأصدقاء في الباكستان - أذكر منهم حضرة
الفاضل الأستاذ حليم مدير جامعة السند - أن أكتب كلمة في
موضوع الديمقراطية في الاسلام .

ولما كانت الباكستان تعمل الآن على وضع دستورها وقوانينها
على المبادئ الديمقراطية التي تتفق والقواعد الاسلامية وروح
الدين الحنيف، كما أعلن رئيس مجلس وزرائها، وأقر مجلسها التأسيسي .
ولما كنت مشغولاً بأن أرى الباكستان دولة قوية ، رفيعة الجانب ،
سليمة التشريع والقوانين فقد رأيت استجابة لأصدقائي ، وإرضاء
لعاطفتي نحو الباكستان العزيزة أن أطرق هذا الموضوع ، مساهمة
منى متواضعة في خدمة هذه الأمة العظيمة .

والله ولي التوفيق والسداد .

ربيع الآخر ١٣٦٩

فبراير ١٩٥٠

محمد علي عابد

سفير مصر بالباكستان

السلام والديمقراطية

القسم الأول

ما هي الديمقراطية؟

يتحدث الناس كثيراً عن الديمقراطية ، وازداد التحدث عنها في الأيام الأخيرة . فتحدثوا عنها بعد الحرب العالمية الأولى . وأثناء انعقاد عصبة الأمم ، ثم تحدثوا عنها بعد هذه الحرب الأخيرة ، وأثناء قيام جامعة الأمم المتحدة . ويتغنى بها اليوم كل من الأقوياء والضعفاء .

وبدأ القوم عندنا في مصر يذكرون هذه الكلمة في أوائل القرن الحاضر . وهي ليست عربية ، ولا شرقية . فما معناها ؟ وما مرماها ؟

وبما أنها قد أصبحت ثابتة في صلب اللغات العربية والشرقية فقد بدا لي أن أتحدث عنها . وعمما يسميه الناس بالديمقراطية وعن مدلولها ، وعن أى الأوضاع التى ينبغى أن نفهمها عليها ، ونسعى بها إلى تحقيقها .

ذلك يضطرني إلى البحث عنها من يوم نشأتها ، وعن أدوار

التطور التي مرت بها ، وعما يجب أن يكون عليه معناها حتى تتفق جميعا نحن الشرقيين على الأهداف التي نصبو إليها -- من ديمقراطية مفهومة الأوضاع محدودة المعنى .

ينسبنا التاريخ بأن قبائل إغريقية (يونانية) كانت تقيم في الجهة المعروفة الآن بآسيا الصغرى . ثم رحلت بعد حين إلى شبه الجزيرة المعروفة الآن ببلاد اليونان واستقرت فيها . فاتخذت كل قبيلة مكانا خاصا بها ينفصل عن غيره بجبال وواد . فلم تتمكن هذه القبائل من أن يتصل بعضها ببعض اتصالا سهلا بهذا إلا بواسطة البحر المتوسط . وأما المفاوز فقد كان من الصعب السير فيها في تلك الأوقات . فكانت كل قبيلة تعز بنفسها . وتعمل مستقلة عن غيرها .

وكان من نتائج هذا الوضع أن تكونت مدن عدة في بلاد الأغريق مستقل بعضها عن بعض . وكان يسمى كل منها في ذلك الحين باسم « بوليس » أى « مدينة » . ولقد درجنا نحن الآن على تسمية بعض مدنها في الشرق وفي الغرب بهذا الاسم . فمن ذلك « هيليو بوليس » القريبة من القاهرة وهى « مصر الجديدة » باللغة العربية ومعناها باليونانية « مدينة الشمس » وقد كان هذا الاسم قاصرا على « عين شمس » المعروفة ، وكانت في مصر أسماء عدة أيام حكم الأغريق والبطالسة تنتهى بكلمة « بوليس » ويوجد

الآن في الولايات المتحدة بأمريكا أسماء إغريقية من هذا القبيل تنتهى بكلمة « بوليس » .

ولما كانت كل مدينة مستقلة عن غيرها في بلاد الأغريق . وكان تعداد كل مدينة في ذلك الحين قليلا ، لا يكاد يتجاوز ألفا وخمسةائة نسمة يعرف بعضهم بعضا . رأى سكان تلك المدن — والانسان مدنى بالطبع — أن يتعاونوا على إدارتها . والتفكير في الادارة وأساليب الحكم يختلف باختلاف عقلية المواطنين في كل مدينة . ولذا كانت أحوال الادارة تتغير بتغير القائمين بالأمر فيها . وكان الرئيس هو الذى يحكم المدينة . والشعب هو الذى يختاره . وكانت الطريقة المثلى عندهم أن يجتمع أهل المدينة الراشدون وعددهم ضئيل — فى صعيد واحد . ويعينوا لمدة سنة مثلا أولئك الذين يجب عليهم أن يقوموا بادارة الحكم فى المدينة يختارون القضاة . ورجال الأمن . وغيرهم ممن تحتاج إليهم الادارة . فاذا انقضى العام اجتمعوا ثانية ليعيدوا النظر فى اختيار من يكون صالحا لادارة البلاد .

وهذا يدل على أن إدارة الحكم فى البلاد كانت نتيجة لانتخاب مباشر من الشعب كله وأن السلطة كانت مركزة فى أيدي الشعب يختار من يشاء فى كل عام .

وهذا هو الحكم الديمقراطى فى نظرهم .
والديمقراطية كلمة مركبة من كلمتين « ديموس » ومعناها الشعب

و « كراتوس » ومعناها سلطة ، فكانت سلطة الشعب هي المحددة في تلك العصور لمن سيتولون ادارة البلاد .

ولم يمنع هذا النوع من الحكم أن توجد أنواع أخرى منه كأن يحكم بعض المدن رجل واحد أو رجال أقوياء يتعاونون معا في الادارة . ونجم عن هذا كله أنواع من الدساتير لسكل مدينة . فوجد في اليونان رجال أقوياء مشرعون نذكر منهم « ليسكورجوس » الذي وضع تشريعا في القرن التاسع قبل الميلاد لمدينة « اسبارطة » و « صولون » المشرع العظيم الذي وضع نظاما لمدينة « أثينا » في القرن السابع والسادس قبل الميلاد .

وكثرت الدساتير وتعددت بتعدد المدن . وقامت مشاكل وفتن وحروب ، وظهر الفلاسفة لخدمة وطنهم وأمتهم . وكان من بينهم سقراط الذي اکتفى بالنقد والمحاورة ، فلم يدون شيئا من فلسفته . وتلميذه أفلاطون في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ، ذلك الذي ابتكر طرقا لعملية لخدمة بلاده . ووضع لذلك كتبها منها « الجمهورية » وكتاب « القوانين » . وكانت أفكاره ترمي في جملتها إلى حصر إدارة البلاد في أيدي الفلاسفة لأنهم في نظره أقدر من غيرهم على حسن الادارة ، ووضع في جمهوريته مشروع المعروف . وهو أن يؤخذ الأطفال جميعا ويربوا على نسق متجانس من التربية . ويدربوا من أول الأمر على أن يكونوا أبناء الوطن لا أبناء آبائهم .

ثم أتى « أرسططاليس » ، تلميذ أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد ، ونظر إلى الدساتير الأغريقية نظرة العالم المدقق والخبير العملي الذي يخضع للعقل والمنطق والواقع معا — نظر إليها فوجدها كثيرة متعددة . لكنه رأى أنها كلها يمكن أن ترجع إلى ستة أوضاع . وإدارة الحكم في نظره لا يمكن أن تعدو هذه الأوضاع الستة . غير أن هذه الأوضاع ليست كلها صالحة بل بعضها صالح وبعضها خبيث طالح .

فالصالح منها ثلاثة ، والطالح ثلاثة .

فأول الأنواع الصالحة « حكم الفرد » . يعنى الفرد الصالح ، سواء أكان ملكا أم غيره . وهو ذلك الفرد الذى يراقب ضميره ، ويستشير أولى الرأى فى قومه ، ثم يصدر قراراته وأحكامه ، بعد أن يتحرى وجه الحق ، والعدل طبق ما تقتضيه مصلحة البلاد .

ويقابل حكم الفرد الصالح « حكم الطاغية » ، وهو الذى لا يرفعى فى قومه إلا ولا ذمة . ويرهب شعبيه بنزعاته الشيطانية وبقوته وجبروته . ويستنزف أمواله لمصلحة نفسه ومصلحة أهله وعشيرته وذلك هو النوع الطالح ، الذى يقابل حكم الفرد الصالح .

والنوع الثانى من الحكم الصالح هو الحكم « الأرستقراطى » ، وليس ذلك يعنى حكم الأغنياء بل حكم الأكفاء . وهم أولئك النبلاء الشرفاء الذين يتعاونون على إدارة الحكم والذود عن الوطن بعقولهم وأموالهم . فيحكمونه حكما صالحا . ويعملون لخيره

ورشاده ويقومون بالانفاق على الجيش في كل ما يحتاج إليه من مال وعتاد ، ولا يبتغون سوى مصلحة الشعب ورفاهيته .

ويقابل ذلك النوع من الحكم حكم طالح وهو ما يسميه أرسطو باليس ، أو ليجاركي ، أى حكم الأقلية التى تصل إلى الحكم دون أى يكون لها مزاياء الحكم الصالح النبيل . فقد يصل مثلاً فريق من التجار — والأغريق كانوا تجاراً بالمعنى الصحيح — أو من كبار المزارعين ، أو من النوعين ، إلى الثراء ويغتصبون الحكم ليعملوا ما فيه الخير لأنفسهم لا للشعب .

وأما الحكم الصالح الثالث وهو الذى يفضلهُ أرسطو على سائر الأنواع فهو الحكم ، الديمقراطى ، أى الحكم الذى تكون السلطة فيه للشعب ، أو كما نعبّر عنه نحن فى الدستور المصرى « الشعب مصدر السلطات » . وذلك أن الشعب هو الذى يقرر طريقة الحكم ويعين من يلون الحكومة . ففي حالة المدن الصغيرة يجتمع الراشدون جميعاً كما قلنا لاختيار رجال الحكم ، وتعين أسلوب الحكومة . وإذا نما الشعب وكبر كان له أن يختار وكلاء عنه أى نواباً ليختاروا رجال الحكم ويعينوا أسلوب الإدارة .

ويقابل هذا الحكم الصالح حكم آخر طالح ، لا يقل خطراً عن الحكمين الطالحين الأولين ، إن لم يكن أكثر خطراً منهما ، وهو الحكم ، الديماجوجى ، أى حكم العامة والرعاع . وذلك أن يقوم

مهرج خداع ، يفسد عقيدة الأمة ، ويغرر بها ، فتنتخبه طواغية واختيارا . وهو في الواقع طاغية باسم الشعب . والذين ينتخبون هذا الطاغية في العادة هم العامة — أكثر الجماعة عددا . وهم أولئك الذين لا يفهمون واجبهم نحو وطنهم ومعهم قلة ، ممن لا يريدون أن يفهموا هذا الواجب ، لمآرب شخصية يريدونها من وراء ذلك التعامى عن الحق الواضح .

ويبدو لي أن أرسططاليس يريد أن تكون مصلحة البلاد في أيدي حكومة نسلمت السلطة ، نتيجة لرأى عام محترم ونزيه ، لم يغرر به أحد . فاذا انحرفت النزاهة في الشعب ، أو خيم الجهل على عقول الشعب ، فانه لا يعتبر رأيه رأيا عاما محترما ، ويقول : إن نتيجة الاستفتاء لا بد أن تكون في هذه الحالة وبالا على الجماعة . فارسططاليس يرى اذن وجوب احترام ارادة الشعب النزيه المفكر ، لتكون خير موجه لخير حكيم . وهذا النوع من الحكم هو الذى نعرفه الآن باسم الديمقراطية .

* * *

بيد أنه يحق لنا الآن أن نتساءل : هل ديمقراطية الأغريق التى حبذها أرسططاليس هذه خالية من الشوائب والعيوب ؟ كلا . فديمقراطية الأغريق جميعا تحمل بعض العيوب التى لا يصح أن نتغاضى عنها .

فأولى هذه الشوائب : أن أرسططاليس كغيره من الاغريق يؤيد الاسترقاق ويحبذه ، فليس الناس لديه سواسية في الحقوق والواجبات . بل هم متمايزون . وينبغي في نظره أن يكون في البلد أحرار وعبيد . وهؤلاء العبيد غير جديرين بالمساهمة في إدارة الحكم ، وفي انتخاب من يلي الأمر ، لأنهم بطبيعتهم كالحيوانات ، مهمتهم خدمة الأحرار يزرعون ويحصدون ، ويعملون لمن يملكونهم وليس لهم أى حق من حقوق المواطنين .

ويذهب أرسططاليس أبعد من ذلك فيقول : إن من الخير للعبد نفسه أن يبقى رقيقا ، حيث وضعه الله ، أو وضعته الطبيعة ، ليعخدم الوطن كما يخدمه الحيوان الأعجم ، سواء بسواء .

والشائبة الثانية : أن ديمقراطيته لا تجعل للمرأة حقاً غير خدمة الرجل والتبعية له . فعليه أن تقبع في عقر دارها تؤدي الواجبات الزوجية ، وتقوم بعمل المنزل والحقن وملاحظة الأولاد . حياتها حياة آلية مرسومة ، لا تتعدها أو تخرج عنها ، فتفكر في المساواة بالرجل ، وفي إدارة دفة الحكم معه . وهى بالاختصار متاع الانسان .

والعيب الثالث : أنها ديمقراطية اعتداء وتوسع وحروب ، فلا ترعى سوى حقوق المواطنين من اليونانيين الأحرار ، وهى لهذا تحبذ الفتوح والتحكم والاستعمار ، وقد أدت في النهاية إلى حروب كثيرة وإلى الاسترقاق .

فالديمقراطية الأغريقية تتلخص اذن في أنها حرية مكفولة
للأحرار اليونانيين دون غيرهم . فهي ديمقراطية محلية وليست
ديمقراطية انسانية بالمعنى الذى يجب أن نفهمها به اليوم .

* * *

مرت الأيام والسنون بعد ذلك ، وحلت الرومانية
الأغريقية ، وتداولت فيها أنواع الحكم الستة التى نوهنا عنها .
وكان فيها حكم الفرد تارة ، وحكم الطاغية تارة أخرى . وكان فيها
مرة حكم الارستقراطية ، ومرة أخرى حكم الاوليجاركية وكان
فيها أحيانا حكم الديمقراطية ، وأحيانا حكم الديماجوجية .

تعاقبت هذه الأنواع من الحكم ، إلى أن طغى عليها الفساد
فتحللت ، وأصبحت منها ينقصها المعتدون من أطرافها الشمالية
والغربية والفاثون من الجنوبية والشرقية فتبددت واندثرت .

وان الذى ينظر إلى هذا النحو من التدهور يتضح له أن
الحكم الصالح لا يرتكز فى الحقيقة على النظم ، كما يرتكز على
الأخلاق السامية ، والنزاهة الوطنية الصحيحة . فالأهم تقوم على
قوة الخلق أكثر مما تقوم على قوة النظم .

* * *

وبعد هذه الفترات الطويلة أتى على الأمم الاوربية حين من
الدهر طويل ، اشتدت فيه المظالم ، وعمت المفاسد ، وكثر الغاصبون

وقاست الشعوب أهوالا من الظلم والاستبداد . فكان كل من قدر على بلد اغتصبه ، وسخر أممه للذاته ومطامعه .

فكانت الاقطاعات وكانت الملوك وأشباه الملوك والأمراء . ولم تر الشعوب متنفسا في ذلك العصر المظلم سوى الموت والفقر والجهل والاعتداءات .

فاندثرت حضارات وضاع التراث الضخم الذي جاء به المصلحون في الأجيال الماضية . الى ان أتى عصر قام فيه فريق من المصلحين بكتابات وأفكار وخطابات : وعرضوا بحياتهم في سبيل رقي الانسانية . كان من هؤلاء المصلحين فلاسفة . وكان منهم شعراء وكتاب . وكان منهم مشرعون .

ولقد قامت في الأجيال الماضية هيئة في انجلترا تدعو ضد الظلم والاستبداد ، كان قوامها النبلاء وأدت إلى مايسمونه « بالميثاق الأكبر » ، عام ١٢١٥ بعد الميلاد ، ثم إلى قانون أكسفورد عام ١٢٥٨ فكان ذلك الميثاق الأكبر أساسا لنظام الحرية السياسية المتبع الآن في انجلترا . ثم قام المصلحون الأحرار في أجيال متعاقبة ، يهدون الشعب إلى الحرية وإلى الشرائع الصحيحة أمثال « مونتسكيو » ، الفرنسي في كتابه « روح القوانين » ، و « جان جاك روسو » ، الفرنسي في كتابه « العقد الاجتماعي » ، وغيرهما من رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، إلى أن قامت الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ يعد

الميلاد، مطالبة بالحرية والاخاء والمساواة، ثم تبتعتها ثورات أخرى في أوروبا، تطالب أيضاً بالحرية، ونشر لواء العدل بين الناس . على أن ذلك لم يمنع من وجود هزات رجعية في أوروبا، قبل الثورة، الفرنسية وبعدها. كان من رجالها أمثال «ماكيافلي»، الايطالى الذى ظهر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بمؤلفات منها «كتاب الأمير» يفسد فيه مآرج عليه الانسان من مكارم الاخلاق. ويجذب طغيان الحاكم وظلمه والختل والأثرة فى الادارة، كما ظهر نوع آخر فى القرون الأخيرة من أمثال «نيتشى» الفيلسوف الالماني، الذى ظهر فى القرن التاسع عشر، ينادى بالثفرقة العنصرية، وأن بعض العناصر يجب أن يسود على البعض. لكن الحركات فى جملتها كانت سعيًا وراء تحقيق الديمقراطية، وظل الناس يسعون وراء تحقيقها ولكن بالمعنى المحلى الضيق الذى يفهمونه. إلى أن أتت الحرب العالمية الأولى فاشتد سعى الناس وراء تحقيق الديمقراطية العامة وزاد تحذشهم عنها. ووجدت بعد الحرب عدة حلول برز منها شيء اسمه: السلام العالمى. كان من دعاةه الميسو «بريان» رئيس الوزراء الفرنسى الذى قام بمشروع «كيلوج بريان» لتحقيق سلام عالمى باتفاق أوربي، ولكنه مالبث أن انهار تحت مطامع الطامعين. كما انهار قبله مشروع الدكتور «ولسون» الذى نادى فيه بحق تقرير المصير.

ثم أتت الحرب العالمية الثانية فرجع الناس إلى فكرة الديمقراطية على النحو الذى ارتآه « بريان » ، وعلى النحو الذى ارتآه من قبل الدكتور « ولسون » ، فأخذوا يتغنون بالديمقراطية وبالدين . وبارادة الله . وبالعذلى الانسانى الشامل . ولكنهم من سوء الطالع لا يتحدثون عن هذه الأشياء ، ويذكرون الله وأوامره ونواهيهِ ، إلا أيام المحن والشدائد . فثان وضعت الحرب أوزارها حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من جشع واستعمار ، وحب السيطرة ، وظلم الانسان لأخيه الانسان

* * *

وهنا نريد أن نرجع ثانية إلى تقسيم أرسططاليس لأنواع الحكم، لرى: هل مات حقاً؟ أو أنه لا يزال موجوداً في العالم فنقول: إن أقدم نظام شعبي في هذه الأيام يحترم ارادة الأمة ، وأقدم نظام ديمقراطى هو النظام الانجليزى . فالبرلمان الانجليزى أقدم برلمان يقوم الآن بيننا . ولكن هل أخذ النظام البريطانى بنوع واحد من نظم المدن الأغريقية وديمقراطية الأغريق؟ أو أنه عملى أخذ من جميع النظم ما رآه محققاً لمصاحبة بلاده؟

إننا إذا نظرنا الى الديمقراطية الانجليزية نجد أنها أخذت من النظام الصالح الأول لأرسططاليس فكرة حكومة الفرد، فجعلت لانجلترا ملكاً أو فرداً حاكماً . وأخذت من نظامه الصالح الثانى

حكم الارستقراطية فأوجدت مجلس اللوردات ، وأخذت النظام الصالح الثالث وهو الحكم الديمقراطي فأوجدت مجلس العموم . فكان النظام البريطاني أخذ الأنواع الثلاثة الصالحة التي ذهب إليها أرسططاليس . ولكنه احتفاظا منه بالديمقراطية الشعبية أعطى السلطة الكبرى لمجلس العموم . وبهذا تمكنت الأمة الانجليزية من أن تحتفظ بتوازن معقول ، فاحتفظت بسلطة الفرد وقداسته . وبمازايا الارستقراطية وهي مراقبة الأكفياء لسلطة العامة ، حتى تكبح جماحها إذا شذت أو تطرفت . وكلما ارتقت وتأكدت من رقي الشعب زادت من سلطة مجلس العموم ، إذ لاخوف عليه حينئذ من التطرف والمفاجآت الضارة .

ولقد شارك انجلترا كثير من البلاد الأجنبية في عدم الاكتفاء بمجلس واحد ولو لم تكن هناك فكرة ارستقراطية . فجعل كثير منها مصدر الديمقراطية من مجلسين ، يراعى أحدهما الآخر ، حتى لا تصدر قرارات تحت انفعالات نفسية ، أو تأثيرات لا يمكن الرجوع فيها .

فجعل البرلمان من دائرتين مختارتين ، تراقب إحدهما الأخرى وتعاونها — ضمان قوى لتحقيق المصلحة العامة ، وصدور القرارات نتيجة تفكير متزن وهدوء واستقرار .

وهذا يشبه تكوين المحاكم من دائرتين لتراقب العليا الدنيا
منهما. ومن الطبيعي أنه إذا كانت الأحكام بين الأفراد تقضى
بوجود هيئات متعددة كان الألفم أن تأتى التشريعات العامة
نتيجة تفكير هادى من هيئات متعددة كذلك .

* * *

ولقد قلت عندما تحدثت عن تقسيم أرسططاليس : إنه تقسيم
منطوق صحيح . ولو أن بعض المؤلفين من أمثال « مونتسكيو »
رأى تقسيما آخر وضع فيه « الجمهورية » ، ظنا منه أن الجمهورية هى
التي تمثل الحكم الديمقراطى تمثيلا صحيحا . ويخيل إلى أن هؤلاء
المفكرين قد أخطأوا . ذلك لأننا نرى اليوم بلادا تخضع لحكم
الفرد — الملك — أكثر ديمقراطية من بعض الجمهوريات .
فلرئيس جمهورية الولايات المتحدة سلطة أقوى من سلطة ملك
الانجليز ، فالوزراء مسئولون أمامه لا أمام البرلمان ، بخلاف الحال
فى انجلترا . فعناصر الديمقراطية متحققة فى الأخيرة أكثر
منها فى الأولى . ذلك لأن المهم فى الحكم الديمقراطى أن يكون
الشعب بواسطة ممثليه مصدر السلطات . بغض النظر عن أن تكون
السلطة العليا ممثلة فى ملك أو فى رئيس جمهورية .

ولست أبالغ هنا إذا قلت : إن البلاد الأوربية الشمالية التى
يرأسها أفراد — ملوك — كإنجلترا وهولندا والدانمارك

والسويد والنرويج — أكثر بلاد العالم ديمقراطية وأمنًا ، وأظهر هدوءًا ، وأبعث على رضا الشعب ، وأكثر تقديسًا لحرية ، واحترامًا لارادته — من جمهوريات كثيرة نراها في أوربا وفي أمريكا .

هذا وإن استقرار الديمقراطية المحلية ، واستمرارها يهيء الشعب إلى أن يدرك واجباته ، وإلى أن يرتفع في تفكيره عن التفكير الذاتي ، وإلى أن يجعل من أفراد الأمة رقباء بعضهم على بعض ، وإلى أن يشيع بينها العلم والمعرفة ، وتقديس التشريعات الصادرة من برلمان يفهم ما يقول ، ويتحمل مسؤولية ما يعمل . وينجم عن هذا التطور والرقى أن تصبح الأمة في مناعة من الفساد . والرشوة والمحاباة . واستغلال النفوذ . وأن ترقى قدما لا بالعنف والثورات التي تهدم دون أن تبني . بل بالتطور الهادئ الثابت الصادر من رغبة الشعب الممثل في برلمانه .

انظر إلى بعض البلاد التي لم تنضج فيها فكرة الديمقراطية المحلية تر أن تطوراتها كانت نتيجة لثورات محلية هدمت ولم تبني شيئا . وانظر إلى بعض البلاد التي نوهت عنها كالسويد والنرويج وهولندا وانجلترا وغيرها تر أن التطور فيها مستمر وأنها قد ارتقت وغيرت نظمها تغييرا تاما ، تبعا لتطور الأحداث وتطور الزمن ، وأن التطور فيها كان لا يقل في كثير من الأحيان

عن التغييرات التي تحدثها الثورات . إلا انه امتاز فيها بالهدوء
وبالسداد ، وإجماع الأمة على النظام والهدوء .

انظر مثلاً إلى بلاد السويد والنرويج وقد كانت من قبل بلداً
واحداً معروفاً باسم « اسكندناوة » ، حين أرادت أن ينفصل بعضها
عن بعض ، لاختلاف اللغة والعادات والتقاليد . فاتفقت على
التقسيم إلى قسمين : السويد والنرويج . وتم ذلك في عام ١٩٠٥
وأصبح بذلك كل بلد منهما ملكة مستقلة ، لكل واحدة منهما ملك
وبرلمان . وبقي الاثنان أخوين صديقين متجاورين متعاونين . فهل
حدث بينهما تقسيم ل أو تهديد أو تعويق عن الرقي في مدارج
الإنسانية والمدنية ؟

هذا درس يجب أن يلتفت إليه الشرق ويستفيع به .

* * *

ورجوعاً منا إلى أصل الفكرة من التحدث عن المجلسين
كشئ صالح في الديمقراطية نقول : إن هذا النظام معمول به في مصر
أيضاً ، وقد كان لي شرف الاشتراك في وضع دستورها .
فنجد مجلس الشيوخ مكوناً من فريقين : فريق ينتخبه الأمة ،
وهو ثلاثة أخماسه . وفريق تختاره الحكومة وهو خمساه . وهذا
الفريق المعين أثر من آثار الأرستقراطية الصالحة ، التي ذهب إليها
أرسططاليس ، وأخذت بها إنجلترا . وكانت الضرورة تقضى

بهذا النوع في مصر لتفشي الأمية فيها ، فكان يخشى من الديماغوجية أن تسود . لذلك أريد اختيار عدد من الشيوخ ، ذوى الارستقراطية العلمية والفنية — إذا ما صح لنا أن نستعمل — هذا التعبير — لتكون هادية وموجهة من الطريق العلمى والفنى لمجلس الشيوخ ، وهى تلك الكفايات الضرورية للأمة الى أن يشيع العلم والفن في البلاد . وحينئذ يمكن أن يكون الجميع من المنتخبين ، من غير أن تخشى مغبة العاقبة — من وجود مجلس بدون أكفاء .

وإذا كان الانجليز — وهم على درجة عظيمة من الثقافة . ولهم تاريخ في الديمقراطية مجيد — يرون الحاجة ماسة إلى نوع من الارستقراطية (مجلس اللوردات) لتحفظ التوازن في البلد — فأولى بمصر أن تكون لها تلك الارستقراطية العلمية والفنية . لتكون هاديا ومرشدا لها في حياتها الديمقراطية .

* * *

والآن وفي مرحلتنا الأخيرة هذه من الديمقراطية ماذا نرى ؟
هل نراها تقدمت شوطا بعيدا أو أنها لا تزال تتبع ديمقراطية الأغريق التى لا نقرأها ؟

هل ثبتت واستقرت ، أو أنها لا تزال تتعثر في أذيالها ؟ ذلك سؤال أتركه ليجيب عنه من يقرأ أو يتدبر ما يلي من الاستفسارات .
هل نحن اليوم في ديمقراطيات انسانية ، أو أننا لا نزال في ديمقراطيات محلية ؟ .

هل امتنع الاسترقاق أو أنه لا يزال باقيا بين الأمم المتحضرة
في غير صورة من صورته ؟

هل نحونا التفاضل بين الأجناس والألوان والمذاهب
والعناصر ، أو أننا لا يزال بعضنا عدو بعض ؟

هل تتعامل الشعوب على قدم المساواة إخوة متحابين ، أو أن الظلم
والعسف لا يزالان واقعين على ذوى الألوان وبعض الطوائف ؟

هل قام الأقوياء بمساعدة الضعفاء ، وبالنهوض بهم في سبيل
الحضارة والمدنية ، أو أن الفتح والاستعمار ، واذلال الشعوب
الضعيفة لا تزال هي البواعث المسيطرة ؟

أسمع من كثيرين من ذوى المسكنة أن الاستعمار والاستبداد
قد زالا بزوال القرن الماضى ، وأن العالم الآن قد استبدل بتلك
الفكرة البغيضة التعاون التجارى والزراعى والصناعى .
فهل حق هذا ؟ .

هل تحققت هذه الفكرة أو أن الناس ظلوا كما هم ، يعيشون كما
كان يعيش أسلافهم فى القرون الماضية ، تحت قانون الغاب . وقانون
الحق للقوة ، لا القوة للحق والانسانية ؟
تلك أسئلة أطرحها لكل ذى ضمير ، ليجيب عنها
بنفسه ولتنفسه .

الديمقراطية الإسلامية

القسم الثاني

قلنا في صدر الموضوع : إن كلمة الديمقراطية كلمة دخيلة في اللغة العربية لم يتداولها الناس قبل القرن الحاضر . فلم يكن العرب في صدر الاسلام على اتصال بما أنتجه العقل الأغريقي ، من علوم ومعارف ، وثقافات حتى العهد العباسي ، الذي بدأ العرب يترجمون فيه التراث الأغريقي الى اللغة العربية .

وإذا جاز أن يكون العرب قد سمعوا في هذا العهد عهد الترجمة كلمة « الديمقراطية » فقد كان هذا السماع مقصوراً على دائرة ضيقة من العلماء الذين ترجموا أو اتصلوا بالمترجمين ولم تشع في ذلك الحين ، ولم تستعمل بين الجمهور للدلالة على هذا المعنى الخاص الذي تدل عليه اليوم .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الترجمة حين بدأت في القرن الثالث من الهجرة — التاسع من الميلاد — كانت ترجمة حرفية ، يلاحظ فيها الحرف الأصلي للكلمة المترجمة دون ما تدل

عليه من معنى . لذلك كانت كلمة « فيزيقي » مستعملة في اللغة العربية كما كانت مستعملة عند الأغريق لتدل على ما نسميه اليوم « الطبيعة » ، وكلمة « ميتافيزيقي » لتدل على ما نسميه اليوم « ما وراء الطبيعة » ، وكلمة « بوليتيقي » لتدل على ما نسميه اليوم « بالسياسة » ، وكلمة « ديمقراطيقي » لتدل على ما نسميه اليوم « بالديمقراطية » ، وهكذا . غير أنها بقيت كسائر الأسماء المنقولة من اللغة اليونانية كأنها أسماء أعلام معروفة فقط بهؤلاء الذين لهم اتصال علمي بها ، فكانها كانت وقفا على هذا النفر القليل من العلماء ، المعنى بالدراسات الاجتماعية والسياسية من التراث الأغريقي .

وأمّا سائر العرب في ذلك العهد فكانوا كالعرب قبلهم ، لا يعرفون شيئا عن تلك الأفكار اليونانية ، والكلمات الأغريقية المعربة .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا يجهلون مدلولها ، الذي تدل عليه اليوم ، كما كانوا يجهلون اللفظ ، فالعرب أحرار بطبيعتهم ، وديمقراطيون بطبيعة تكوينهم وبيئتهم . وسنرى هنا إلى أى مدى كان الاسلام ديمقراطيا في نزعته . وتشريعته . وفي تسكين حياة المسلمين العملية .

قام نبينا الكريم ﷺ يدعو الناس إلى التوحيد والفضائل ، في بلاد تفسدت فيها عبادة الأوثان والجهالة . وكان القوم في بلاد الحجاز عاكفين على الظلم والاستبداد ، وعلى أعمال السلب والنهب ،

وعلى الغزو والتقاتل ، وعلى الخمر والميسر . وعلى التفاسخ
بالأنساب ، وقوة الشكيمة والأتباع ، وكثرة النفر والنفير .
وكانت بلاد الحجاز بلاداً جرداء قاحلة ، كلها صحارى وجبال
ورهاد ونجاد . عفا الفاتحون عنها فبقيت في عزلة واستقلال . وظل
أهلها متمتعين بحرية الحركة والانتقال . يتصرفون في أمورهم كما
يشامون ، من غير أن يكون لهم وازع إلا المصلحة القبلية
والعصبية والوثنية .

وحول هذه الصحراء القاحلة كان يوجد من جهة الشمال
أمبراطوريتان عظيمتان ، هما أمبراطورية الرومان الشرقية .
وأمبراطورية الآكسرة « أمبراطورية الفرس » . ويوجد من جهة
الغرب البحر الأحمر . ومن جهة الشرق صحراء . ومن الجنوب
بلاد اليمن ، وكان لا يؤبه بها في ذلك الحين .

ومن حيث الحكومة وشئون السياسة كانت بلاد الفرس
تحت حكم الطغیان ، أى حكم الفرد المستبد الذى لا يخضع فى حكمه
إلا لما يملكه عليه عقله وإرادته . أما بلاد الرومان الشرقية . وهى
التي كان يعبر عنها العرب بأمة الروم فقد كان لها أمبراطور يحكمها ،
وكانت ذات قوانين وضعية كان أهمها التشريعات التي وضعها
« جوستانيوس » ، فى القرن السادس من الميلاد ، فوضع ما يسمى
« ديجست » ، و « انسيتوت » ، و « نوفل » ، و « القوانين » .

وبالرغم من تلك القوانين ، ومن الشرائع التي وضعت أيام
جوستانيوس وقبله فقد كانت هذه الامبراطورية مقطعة الأوصال ،
مفككة العرى ، عم فيها فساد الحكم والطغيان وانتشرت فيها
المحاباة والرشوة ، حتى ضعفت قوتها وتفككت .
وأما العرب فكما قلنا كان لا يتحكم فيهم الا التقاليد القبلية ،
والمصالح والنزعات والشهوات .

في هذا العصر ظهر النبي الأُمي الكريم ﷺ وقام يدعو الى
التوحيد . وهو أساس الاسلام . ذلك التوحيد الذي يعنى أن الله
واحد ، قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له
كفو أو أحد .

ويبين أن محمدا ليس إلا عبد الله ورسوله . لا يملك لنفسه
ضرا ولا نفعا ، ولا يملك لأحد شفاعه إلا أن يأذن الله له ،
وأنه انسان وبشر أوحى اليه برسالة فحسب . « قل انما أنا بشر
مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد ، وأنه ليس هناك بين
العبد وربّه حاجز فلا وساطة . والطريق الى الله مفتوح لكل
انسان ، يصل اليه من يشاء ، بعمله وجده لا بحسبه ونسبه
أو بشهادة القديسين والمصلين له . فليس هناك اعتراف لغير الله
أو توبة الا له . وليس هناك نظام كهانة أو كهنوت أو رهبانية أو زهد

عما اباح الله لعباده من الطيبات ، ولكن عبادة وتعمير الأرض وبناء المجتمع .

فخطم محمد ، بهذه الفسكرة أو ثان المشركين كالكالات والعزى ومناة وهُبل ، وحرم عبادة الأوثان . وفي سبيل هذه الدعوة السكرية التي نهضت بالعقل الانساني إلى ما يليق به من كمال إنساني عرض نفسه إلى الأذى ، وعداء أهله وذويه وأقرب الناس إليه . فتألبوا عليه وجمعوا جموعهم لقتله ، فأنقذه الله مما كانوا يمكنون .

وعلى الرغم من ذلك كله فقد كانوا كلما امعنوا في أيدائه قال : اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون .

حرم الخمر والميسر وحرم وأد البنات ، وقد كان المشركون يرون من العار أن تكون لهم بنات ، فكان من بينهم من يضعها في حفرة ، ويهيل عليها التراب حتى تموت .

منع رسول الله ﷺ هذه الوحشية ، وأزال هذه الجهالة وجعل للبنات حقاً في العيش كالبنين وغيرهم من سائر خلق الله . وجعل للناس جميعاً واجبات بعضهم على بعض وأشاع فيما بينهم أن أحبهم إلى الله هو أنفعهم للناس . ليتسابقوا إلى الجهاد في سبيل الخير الاجتماعي حتى يوجد شعب ، يستعد كل فرد من أفراد التضحية بمصالحه الشخصية في سبيل المصلحة الاجتماعية .

أوجب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن
استطاع إليه سبيلا ، لا ليظهر قلوب الأفراد ويزكيها فحسب . بل
ليهيئ للمسلمين فرصا اجتماعية يلتقون فيها كل يوم وليلة
لتتأكد عرى الروابط بينهم ، يلتقون فيها من كل عام في مكة
المكرمة ، ويكونون مؤتمرا إسلاميا يتداولون فيه شئونهم ،
ويتدبرون أمورهم ، ويقررون ما فيه خيرهم وصلاحهم ، حتى ينهضوا
إخوة متآزرين متصافين متحابين ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ونادى بأن الناس سواء لا فرق بين هاشمي وغير هاشمي .
بين عربي وغير عربي . بين أبيض وغير أبيض . بين شريف
ووضيع . بين هذا وذلك . فالكل سواء في الإنسانية . والكل
سواء أمام القانون . والكل سواء أمام الله . لا يتميزون إلا
بالتقوى والعمل الصالح .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »
ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

أرأيت خيرا من هذا نورا ينبثق من بين أمة جاهلة متناحرة ،
تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض . وتتفاخر بالأحساب
والأنساب ، والقوة والعصية فينادى بأن الناس سواسية ، لا يتفاوتون
ولا يتفاضلون ، إلا بما يقدمون للجمتمع من جلائل الأعمال ؟

ذلك النور هو محمد بن عبد الله الذى لم يتلق هذا السمو
عن أحد من أهله وذويه . أو عن البيئات التى كانت تعاصره
وتجاوره ، ولكنه تلقاه عن الوحي الأمين الذى لا ينطق عن
الهوى ؛ فهو نور الهى يهدى الانسانية إلى أرقى ما يهدف إليه
الانسان الكريم .

كفل محمد للمرأة حريتها واحتفظ لها بانسانيتها . ولم يجعلها
متاعا ، بل إنسانا يتمتع بما يتمتع به كل انسان من حقوق . فلها أن
تملك المنقول والعقار ما شاء لها حق التملك . ولها أن تبيع ، وأن
تتب ، وأن توصى وتقاضى كما تريد . ولها حق الارشاد ، ولها حق
التعليم . ولا ينقص حق من هذه الحقوق بزواجها فهى تحتفظ
بمالها ، مستقلة عن مال زوجها ، كما لها أن تتصرف فيه كما تشاء ، وأن
توكل عنها من تشاء ، دون أن يكون لزوجها سلطان عليها فى ذلك كله .
نهض بالانسان إلى مكانة عليا ، فاحترم عقله وارادته وحرية ،
وتركه حرا من غير أن يكرهه على أن يعتنق هذا الدين أو ذلك
الدين ، لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي .

ولم يشرع الحرب أداة لالزام الناس أن يكونوا مؤمنين ، بل دفاعا
عن النفس والعقيدة ، وتأمينا لطريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة
وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين . ولا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم

من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ،
و « قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

وانظر إلى خطب الرسول الخالدة صلى الله عليه وسلم تجده فيها ينهى عن
حرب التخريب والشدة ، ويحرم حرب الاستئصال . فكان
يقول في وصاياهم : لا تقتل امرأة ولا صديا ولا كبيرا هزما . ولا
تقطع شجرا مثمرا . ولا تحرب عامرا . ولا تعقر شاة ولا بعيرا
إلا لما كلة . ولا تعقر نخلا ولا تحرقه ولا تغل ولا تمثل ، ولا تقتل
أصحاب الصوامع ، أى المعتكفين على العبادة من غير أهل دين
الاسلام . إلى غير ذلك من الأوامر والنواهي ، التى تبين بوضوح
أنهم لم تسكن حرب غيظ . ونكاية . بل حرب ضرورة أنارتها
أحقاد قوم لا يعقلون ، ولا يريدون أن يتركوا الأبواب مفتحة فى
سبيل دعوة رشيدة ، تتبع خير الطرق وأسلمها .

ارتفع بالعلم والعلماء فى عصر الجهلاء والجهالة .

جاء فى القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر
أولوا الألباب . » .

و « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، » .

و « ما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ، » .

وجاء في السنة :

« تعلموا العلم ولو بالصين » .

و « تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة » .
ارتفع بالعلماء حتى سماهم أهل الذكر وأولياء الأمر . يسألون فيما يختلف فيه الناس ، ويرجع إليهم الحاكمون والمحكومون على السواء .

وبلغ من حبه للعلم والتعلم أن جعل فداء من يقرءون ويكتبون من أسرى « بدر » أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة ، في وقت كان الاسلام فيه أحوج ما يكون للرجال والمسال .

جعل أمر الناس شورى فيما بينهم ، بعد أن وضع قواعد عامة ومبادئ عليا صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان . وترك للعقل الإنسانى بعد ذلك فيما عدا قليلا من التشريعات التفصيلية حرية الحركة والعمل في كل العصور والأزمان .

فجاء في القرآن الكريم « وأمرهم شورى بينهم » و « شاورهم في الأمر » .

وأوجب طاعة هؤلاء وطاعة أولى الأمر ما لم يأمروا بما يخالف الله . « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

وفي الحديث « السمع والطاعة حق على المرء فيما أحب أو أكره
مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » و « إنما
الطاعة بالمعروف » .

بذلك كله — وكله نهوض بالعقل الانساني . نهوض بالمرأة
والرقيق ، تسوية شاملة بين أفراد الجنس البشرى ، لا يفترق فيها
فرد عن فرد لدينه أو لقومه أو لونه — أوجد الاسلام ديمقراطية
عالمية ، مخالفة لتلك الديمقراطيات المحلية التي ألمعنا اليها سابقا ،
ونفذهما بين الجماعة .

أرأيت كيف كان محمد ﷺ منفذا لأوامر ربه ، ومسويا بين
الأشراف والأرقاء ؟

أرأيت كيف غضب حين قال أبو ذر الغفارى لعبد زنجى :
« يا ابن السوداء » وقال له : طف الصاع طف الصاع ، ليس لابن
البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

انظر إليه يقرر فى حجة الوداع دستور المسلمين فى هذا الصدد
فيقول : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم
لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على
عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لآسود
على أبيض ، فضل الا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . ألا
فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

فلما بالسخ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وأعلم الناس بوحدة الخالق وبوحدة المخلوق انتهت مهمته في هذا العالم ، ففارقه مطمئنا ، تاركا فينا ثروة ، لو تمسكنا بها لكانت نوراً هاديا إلى سبيل الرشاد .
وهي تلك الثروة التي لا نجد لها شبيها من عمل الانسان . فقد ناقضت ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وعقائد وتقاليد . وما رآه فلاسفة اليونان والرومان ووصلوا إليه من ثقافات ، بل كانت ثورة عليها لأنها كانت تستعبد الانسان للانسان ، وقد خلقهما الله متساوين في الحقوق والالتزامات .

وحق لها ذلك ، فهي دين الخلود . وخاتمة الأديان . ومكملة الرسالات ، التي جاء بها النبيون من قبل ابراهيم واسحق ويعقوب . وموسى وعيسى والنبيون من قبل . وبذا اختتمت سلسلة الرسالة واكتمل بناء النبوة .

ذهب رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى خلفه من بعده أبو بكر الصديق ، . وهو ذلك الصديق الصدوق الذي كان أول من أسلم من الرجال وعرض نفسه لشديد الأهوال ، وضحي بماله في سبيل الله وفي سبيل نصرته الدين .

ولى أبو بكر رئاسة المؤمنين بالمبايعة ، فبايعه في سقيفة بني ساعدة بعد جدل عنيف وخصومة وجدال — نفر قليل ، ثم تابعهم

الناس . وبذا تمت البيعة . ولزمت الطاعة ، فقام خطيبا مبينا أسلوب
الحكم الذي سيسير عليه . فأبان أنه حكم شورى ، وأنه ليس إلا
واحدا من المسلمين ، يخطئ ويصيب ، فيحتاج إلى رأى المؤمنين
ليرشده . وليقوموا عوجه .

فقال : يا أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتُمونى
على حق فأعينونى ، وإن رأيتُمونى على باطل فسدّدونى . أطيعونى
ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم .

وقال فى خطبة أخرى : « انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن
استقمتم فتابعونى ، وإن زغت فقومونى » .

بهذا الأسلوب الحكيم ساس أبو بكر المسلمين ، حتى مات
راضيا مرضيا عنه .

ثم خلفه الفاروق « عمر بن الخطاب » ، بتوصية من أبى بكر
ما لبث أن وافق عليها المسلمون فبايعوه مختارين ، فقام يقول « إن
رأيتُم فىّ اعوجاجا فقومونى بحد السيف ، ولا خير فيكم ما لم تقولوا
ولا خير فىّ ما لم أسمع » ،

ذلك هو عمر الذى جاء يسأل عنه رسول قيصر ليفاوضه فى
شأن الصلح ، فوجده نائما تحت شجرة ، وجد خليفة المسلمين الذين
دوخوا كسرى ورجال قيصر ، وأنزلهم من صياصيمهم وقلاعهم

صاغرين — نائماً في العراء تحت شجرة ، يتوسد حذاه ، فهت وقال : « حكمت فعدلت فأمنت ، فنمت يا عمر »

ذلك هو عمر الذي بنى الامبراطورية الاسلامية لا حيا في الفتح والغزو ، ولكن تأمينا للدعوة ولدين الله . ولم ينل منها سوى لقيحات لا تسكاد تغنى اليوم سائلا عن السؤال .

أرأيت كيف كان عدله واحترامه للحرية الفردية ضرب الأمثال ؟ انظر إلى ما عمله عمر مع نصارى بيت المقدس وسكانه . وما أخذ على نفسه وعلى المؤمنين من عهود ومواثيق ، لتعلم أن الغاية من تلك الفتوح لم تكن توسعا أو استعمارا ، بل تأمينا للدعوة والحرية والدين والتفكير ، في عصر كانت الحريات الفكرية فيه جريمة . عندما افتتح المسلمون بيت المقدس طلب البطريق « صوفرنوس » ،

إلى عمرو بن العاص قائد جيش المسلمين أن يطلب حضور عمر أمير المؤمنين ليتسلم بنفسه بيت المقدس ، وليمضى معه المعاهدة ، فلم تأخذ أمير المؤمنين العزة ، واستجاب لطلب المغلوبين ، وذهب من المدينة إلى بيت المقدس ، على دابة يتناوبها هو وخادمه . فمأن وصل إلى البيت حتى سلمه البطريق مفاتيحه ، فزار كنيسة القيامة ، وفي أثناء زيارته حان موعد الصلاة ، فهم عمر بالخروج من الكنيسة ، ولكن البطريق حاجه قائلا : إن الاسلام لا يمنع من الصلاة في أى مكان ،

وطلب اليه أن يصلي في الكنيسة ، فأبى عمر أن يفعل ذلك ، لاكرها للصلاة في الكنيسة ، بل لأنه خشي أن يأتي المسلمون في يوم من الأيام ويتخذوا هذا المكان مسجدا قائلين : هنا صلى عمر . فلهه درك أيها الفاروق ، ما أعدلك وما أبعد نظرك ! .

ثم أعطاهم هذا العهد الخالد :

هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولسكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم .

وانظر كيف كانت الشعوب المضطهدة تستقبل المسلمين بترحيب واستبشار بل يدعونهم للدخول ، ويفتحون لهم الأبواب ، كما فعل المقوقس رئيس أقباط مصر وغيرهم من الشعوب وحكام الأقاليم لينقذوهم من براثن الحكم الغاشم ، حكم الدخلاء الغاصبين . إذ أن العرب لم يكونوا مستعمرين ظالمين في التوسع الأقليمي رغبة في ملك أو مادة ، وليكن كانوا مؤمنين بتلك الدعوة ، يحاولون إزالة الغواشي التي كانت تقف حاجزا ، تمنع الضعفاء من الاستماع للحق والانصات لكلمة الهدى والرشاد .

لذلك لم يكن المسلمون الأولون — وهم أكبر حجة في فهم معنى الاسلام — يعدون جيشاً للاستعمار ، ولكن كانوا يتركون

من فتحت بلادهم يديرون أمورهم كيف شاءوا ، وإذا أسلموا لم يكن لأحد عليهم من سلطان إلا سلطان كتاب الله ، وما للمسلمين بعضهم على بعض من حقوق النصح والشفقة والاحسان .

وعمر هذا هو واضع قاعدة ، من أين لك هذا ، حين كان يحاسب عماله ، ويقاسمهم أموالهم ، لأنهم لم يرسلوا ليكونوا تجاراً ، أو يستغلوا نفوذ الامرة والسلطان . تلك القاعدة التي وضع لها بعض الدول في أيامنا الأخيرة قوانين لمحاكمة الوزراء وغيرهم على استغلال النفوذ . وعمر هذا هو الذي حذر على كبار الصحابة أن يخرجوا من المدينة ، ويقتنوا الأموال خارجها لئلا يفتنوا ويفتنوا .

وفي عهده تسابق مصرى مع ابن لعمر وبن العاص فاتح مصر وأميرها في ذلك الحين . فسبقه فاغتاز ابن الأمير وضرب المصرى قائلاً : أنا ابن الآكرمين . فأقسم المصرى ليشكونه إلى عمر . فلما فعل استدعى عمر الأمير وابنه وأعطى المصرى درته ، وقال له : اضرب ابن الآكرمين كما ضربك فلما فعل قال له : اضرب الأمير ، فقال : إن الأمير لم يضربني . ثم التفت عمر إلى الأمير وقال : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ؟

أرأيت كيف رضح عمر لقول امرأة حين أراد تحديد المهور لما رأى تغالى الناس فيها . فقالت له امرأة : كيف نصيخ لرأيك

والله يقول : وان آتيت احداهن فنتظرا ، فاستسلم عمر ، وقال :
أصاب امرأه ، وأخطأ عمر .

أرأيت أميراً للمؤمنين أو غير المؤمنين يجلس أمام النار
ينفخ بفيه النار على قدر ليسوى الطعام سريعاً ، لأطفال جياع ،
والدخان يتصاعد في وجهه وعينه .

تفقد عمر ذات ليلة أحوال رعيته ، فرأى امرأة توقد تحت
قدر ، ورأى أطفالها حولها يبكون ، فسألها عما بهم ، وعما بالقدر .
فقالت : يبكون من الجوع والقدر ماء وحصى ، أعلمهم به حتى
يناموا . فذهب عمر ورجع يحمل دقيقتاً وسمناً ، فألقى بشيء منهما
في القدر ، وصار ينفخ النار بفيه ، والدخان يتخلل لحيته ، حتى نضج
الطعام ، فأكل الأطفال وشبعوا . ولم يتركهم حتى لعبوا وضحكوا وناموا .

انظر إليه غاضباً ، حين رأى شيخاً ذمياً يتسول ، وقائلاً : إننا لم
ننصف الرجل نأخذ منه جزية وهو قوى ثم نتركه وهو ضعيف
ثم أمر أن يعطى من بيت المال ما يكفيه .

تلك كانت عدالة عمر . وتلك كانت ديمقراطيته ، التي لم تكن شيئاً
ابتدعه ، بل تنفيذاً لروح الدين ولما دأبه .

لذلك لم يكن عمر بدعاً في هذا ، بل شاركة فيه كل من أتى من
بعده من الخلفاء والأمراء الذين حافظوا على الدين بأوامره

ونواحيه ، أولئك الذين لو حاولنا إحصاءهم وإحصاء مآثرهم الاجتماعية لظال بنا المقام طولا يخرجننا عن موضوعنا هذا فنجتزئ بما ذكرنا ، من مثل العدالة العليا ، والديمقراطية الشاملة في عصور الظلم والجور والاستبداد .

لست أريد هنا أن أقارن بين تلك العدالة الشاملة والحرية الكاملة وبين السكبت والعسف والاستبداد التي كان بين العالم منها في ذلك الحين وبعد ذلك الحين . فكتب التاريخ مليئة بذلك النوع ، تبين أن الطغيان والجبروت كان ديدن حكام أوروبا — حتى بلغ أن قال بعضهم — لويس الرابع عشر — في القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر من الميلاد : « أنا الدولة » .

وظل ذلك الوضع سائدا حتى الثورة الفرنسية التي أعلن فيها الفرنسيون مبادئهم السامية الثلاثة (الحرية والأخاء والمساواة) وهي ليست إلا إحدى المبادئ السامية التي أعلنها الاسلام قبل ذلك بأحد عشر قرنا .

وضع الاسلام قواعد عامة لقيادة الجماعة ، ولأصول الأحكام . وضع قواعد أغلبها عام يرجع إلى مكارم الأخلاق . وتحقيق العدالة . وإزالة المنكر وجعل الحكم شورى بين المسلمين ولكن

تفاصيل تلك الشورى متروكة للمسلمين ليقرروا أصلح الأنواع
التي تتناسب مع الزمان والمكان وظروف الأحوال . ولما يجد من
أحداث ، ولما يرتبط بالعالم الاسلامى عند اتساع رقعته من أمم
وتقاليد وعادات .

فقواعد الاسلام فى هذا الباب ، وفى كثير غيره عامة
ومرنة ، تنسج لكثير من الأمور الجديدة التى تستدعيها طبيعة
العمران . ولقد كان الاسلام حكيما فى ذلك ، وحكيما فى أنه لم يترك
للناس التصرف فى معنى الأخلاق ومدلولها ، خيفة ان يزيفوا
ويضلوا فى تحديد الأخلاق الكريمة ، تحت عامل الجهل أو الشهوة .
وتلك الأخلاق القويمة والمبادئ الكريمة التى دعا إليها الاسلام
وقام بها المسلمون هى سر انتشاره واتساع رقعته . وإن نظرة
واحدة الى العالم الاسلامى كما زاره اليوم لكفيلة بتبيين ذلك .

انظر إلى الاسلام تجده قد انتشر فى بلاد الهند مثلا انتشاراً
عظيماً ، بعد سقوط الدولة المغولية ، وبعد زوال ملك المسلمين ، حتى
بلغوا اليوم مائة مليون . وقاربوا الخمسين فى الصين . وفى أندونيسيا
وجزر المحيط الهندى وسواحل ثمانين مليوناً . وفى أواسط افريقية
عدد كبير من الملايين — كل ذلك من غير أن يكون له ظهير من
قوة أو سلطان ، وإنما هى سماحة الدين الإسلامى ، وإلتجاء المسلمين

إلى وسائل الدعوة بالحسنى ، التى أمر بها القرآن الكريم ، بقوله :
« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى
هى أحسن » .

فالاسلام يتغلغل بالسلم والاقنباع ، ويسير إلى الامام بخطا
واسعة ، قوى المؤمنون أو ضعفوا . ولقد شهد بذلك كل من رجال
الدين والسياسة على السواء .

فترى هتلر مثلاً فى كتابه ، كفاحى ، يصرح بأن المبشرين مع
ما ينفقون من أموال ، وما يبذلون من تضحيات لم ينجحوا فى
إيقاف هذا التيار الجارف ، تيار انتشار الاسلام . ولعل ذلك هو
الذى دعا بعض السياسيين إلى أن يمنعوا المسلمين من دخول بعض
المناطق الاستوائية ، ومنع سكان هذه المناطق من الاتصال بالمسلمين .
أتلك هى حرية القرن العشرين أم أننا لا نزال نتخبط فى دياجير
من العسف والعبودية ؟

قلنا : إن الاسلام وضع قواعد عامة ، وترك أمرها إلى أهل
الذكر من المسلمين ، كما جاء فى القرآن الكريم . فاسألوا أهل الذكر
إن كنتم لا تعلمون . . ولهذا قام فى الدين عند بعض المذاهب
للمحافظة على روح الاسلام ، وحسن تطبيقه — مصدران آخران
فى التشريع بعد القرآن والسنة . هما القياس والاجماع . حتى إذا

ظهرت حادثة لم يشمها ناص صريح من كتاب أو سنة تمكن المؤمنون من إيجاد حكم معقول لها ، مسترشدين في ذلك بالأقيسة ، وباجماع أهل الذكر ، وهم الأكفيا الذين تمكنوا من قواعد دينهم ، وسمت أخلاقهم ، حتى يأتمنهم المسلمون في أقضيتههم ومنازعتهم .

ومن هنا ظهرت المذاهب الاسلامية ، واختلفت وتعددت ، وهي تسعى كلها إلى الخير وإلى الحق ، دون أن تخرج عن الأسس التي جاءت في الكتاب وفي السنة فهي خاضعة من حيث المبدأ إلى التشريعات السماوية الخالدة ، كما تخضع السنة أيضا لها . وفي ذلك سألنا الرسول صلوات الله عليه وآله وسلم أن يرجع كل ما يروى عنه إلى كتاب الله ، فإن وافقه فيها ، وإلا ضربنا به عرض الحائط .

* * *

فالشورى من القواعد التشريعية العامة ، التي أمرنا أن نعمل بها في شؤون المسلمين ، وفي شؤون الدولة . ولكن ترك تحديد هاتو تفصيلها للمسلمين ، ليكونوا نوع الشورى التي تناسب مع حياتهم الاجتماعية . وهنا صح للمسلمين أن ينشئوا مجالس نيابية بجانب ولى الأمر . وجاز لهم أن ينشئوا بجانب هذه المجالس أيضا مجالس أخرى ، تراقب الأولى ، وتراجع ما تقرره ، حتى تكون قراراتها أدعى إلى الطمأنينة ، وأقرب إلى السداد .

ويجوز للجماعة الإسلامية أن تظمن إلى قرار أهل الذكر ،
فنيحصر النواب فيمن ترى فيهم كفاءة في نواحي النشاط الاجتماعي ،
كما يجوز لها أن تجعل الانتخاب حرا طليقا ، تختار الأمة من تشاء ،
إذا لم تجد حرجا من ذلك .

كل هذا وغيره من الأمور التي لم يشأ الاسلام أن يدخل في
تفاصيلها . بل تركها إلى ضمير الشعب ودينه وخضوعه لقواعد
الاسلام الأساسية ، التي أمر بها من عدل ورحمة ، واحترام للحقوق
الفردية والحقوق العامة والالتزامات والعهود .

كذلك لم يحدد الاسلام شيئا اسمه خلافة ، أو إمارة ، أو إمامة ،
بل ترك ذلك للمسلمين فجاءوا واختاروا الخليفة ولقبوه ، وكان هذا
اللقب مدلولاً لغويا للكلمة التي تدل على مركزه الذي هو فيه .
وجاء من بعده عمر فلقب « بخليفة خليفة رسول الله » ، وكان ذلك
حقا ومدلولاً لغويا أيضا . ولكن وجد المسلمون طويلا فاستبدلوا
به لقب « أمير المؤمنين » ، واستمر هذا اللقب سائدا من غير أن
يكون له أساس في كتاب الله أو سنة رسوله . مما يدل على أن صورة
الحكم ثانوية في الاسلام .

ولهذا جاز لنا أن نلقب من يلي الحكم بأى لقب شئنا أن نلقبه
به ، رئيسا أو حاكما أو راعيا أو سلطانا أو ملكا أو شاهاً أو امبراطورا .

✓ فهذه ألقاب لا يعنى بها الاسلام فى شىء، ومتروك أمرها للمسلمين ، لا يقيدون بشىء إلا بتلك القواعد الأساسية ، وهى أن يكون ولى الأمر دستوريا . وأن يكون الشعب مصدر السلطات . وأن تكون سلطة الشعب خاضعة لقوانين الدين ، ومستمدة من روحه وتشريعاته التى وضعها الله حفظاً لسكيان المسلمين ، وصيانة للعدل المطلق الذى قرره من أن ينصرف به الناس ، وتلعب به الأهواء ، وعملاً على إشاعة السلام والطائفة والحب والتواد بين الناس ، وعلى رفع مستوى الفقراء والمعوزين . وإقراراً بأن للفقراء فى أموال الدولة ، وفى رقاب الأغنياء حقاً معلوماً ، ينبغى أن يكون . تلك هى القواعد العامة التى تباهى بها اليوم الديمقراطيات الحديثة ، وهى من مبادئ الاسلام الأولى ، التى لم تترك تحت رقابة الضمائر والنظم والقوانين خسران . بل تحت رقابة الله العليا ، وهو الذى يعلم ما تختفى الصدور ، ويراقب المراء فى سره وفى علانيته . تلك هى ديمقراطية الإسلام . وهذا هو عمقها وأثرها فى النفوس ، كأداة تطهير لها . لا بالرياء والختل والخداع ، ولا بالمظهر والصورة . ولكن بالواقع والحقيقة وبحسن النية والإخلاص .

فليس المسلمون ولى أمرهم بما شاءوا من أسماء ، وليقيدوا

الشورى بما شاءوا من قيود و ضمانات ، ولينتخبوا من أولى الذكر
ما يشاءون ، ممن يتوسمون فيهم خيراً لخدمة الله والدين والوطن .
فتلك حالة تختلف باختلاف الزمان والطباع والتقاليد .
ولا تنقيد إلا بالقاعدة والمبادئ التى أشرنا إليها .

وما دام الإسلام قائماً على الدعوة إلى الحق بالحسنى . وعلى
أن لا إكراه فى الدين . وما دام بحق دين العالم الذى يرمى إلى أن
يكون الناس كلهم مؤمنين ، فكيف يتأتى لكل هذا العالم الشاسع ،
المتراعى الأطراف ، المختلف الأمزجة والثقافات والعادات — أن
يكون دولة واحدة تخضع لحاكم واحد ؟

ولماذا لا يتعدد خلفاء رسول الله بتعدد أقطار الإسلام .
ويكون الملك والسلطان الأعظم عليهم جميعاً — كتاب الله الذى
لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يربطهم جميعاً باسم الله ،
ويجمعهم على كلمة التقوى والإيمان . ذلك أولى بالإسلام
العالمى وأجدر .

* * *

والآن إذا رجعنا إلى الوراء ، ونظرنا إلى حكم عمرو من وليه ،
وإلى حكم أبى بكر كذلك أمسكتنا أن نسمة حكم الفرد الصالح
الذى ألمعنا إليه فى نظم اليونان ، بيد أنه يختلف عنه فى بعض
المسائل الجوهرية .

حكم الفرد الصالح اليوناني كان حكم فرد يستند إلى رأى جماعة من عقلاء الأمة فحسب . وأما حكم الفرد في الإسلام فكان يرجع في النهاية إلى قواعد العدل المطلق ، والمساواة الكاملة التي قررها الإسلام .

والديمقراطية اليونانية بما فيها من حكم الفرد الصالح كالديمقراطيات الحديثة ، التي تفرعت عنها ديمقراطيات محلية لم تنهض بحال للمستوى العالمى ، الذى يليق بالديمقراطيات الإنسانية .
وأما الإسلام فالنظرة الإنسانية فيه كاملة .

فقد سوى كما بينا آنفاً بين أفراد الانسانية جمعاء ، لا فرق بين زنجى وغير زنجى . لا فرق بين عربى وغير عربى . لا فرق بين هاشمى وغير هاشمى . لا فرق بين أقارب الرسول وأقارب من عداه ، أو من عاداه إلا بالتقوى وبالعمل الصالح .

ذلك هو العدل الإنسانى المطلق . فسمه بما شئت غير الديمقراطية فإنها كلمة كما نعرفها اليوم ضيقة لا تصفه ولا تحده .

وهو العدل الشامل الذى وقف بعض من لا يفهمونه حاجزاً دون انتشاره . ولسكنه سينتشر يوماً ما ، حين يرقى الإنسان ، وتزول عنه عصبية الجاهلية .

وسياتى يوم يوفق فيه الانسان كانسان . ويتسع أفقه . ويكبر

عقله . وترفع إنسانيته . فيستحلي عن قانون الغاب والظلم والاستبداد ،
ويتمسك بقانون الإسلام ، قانون العقل والرحمة والعرفان .

وإلى أن يأتى ذلك اليوم . يوم الإنسانية السعيد فستظل الأرض
مهلكة ومذبحة ، ومكان التطاحن والتنازع والحروب ، حتى تشتد
الآزمة ، وتعصف العاصفة ، وتضيق الأمور ، وتشتد الظلمات ،
فتوقظه الشدة وتنبهه القارعة ، فيؤمن بسبل السلام والإسلام ،
ويحترم أخاه الإنسان .

وفقنا الله جميعاً للسداد والسلام .



كلية الافتتاح

في الاحتفال بذكرى إقبال

ألقى سعادة محمد علي علوبة باشا هذه الكلمة
في مدينة لاهور في ٢١/٤/١٩٤٩. ونشرها
هنا لأن فيها كثيراً من المعاني الديمقراطية ،
التي تتصل بموضوع الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

رأيت لأول مرة في القدس من عشرين عام مضت ، أيام كنا
وكيلين للمؤتمر الاسلامي العام ، الذي انعقد هناك ، للدفاع عن
فلسطين ، ولقد كنا من خطباء هذا المؤتمر . كنت أعرفه قبل ذلك
بالاسم فلقد سبقته شهرته إلى الأفطار العربية كشاعر ومفكر
وفيلسوف . ولم أكن أعرف عنه غير ذلك ، لأن قصائده
وأفكاره وحكمه وعظاته كانت كلها باللغة الفارسية أو الأوردية ،
فلم يصلني من معانيها سوى القليل النادر ، الذي لا يكفي لاعطاء
حكم صادق على الرجل ومقدرته ، فذلك يستدعي الاحاطة
باتجاهاته وبما يرمى إليه من أهداف — فهل كان شاعراً للشعر
ومفسكراً ينبغي إبراز جوامع الكلم في ثوب قشيب يشعر بأدبه
وبلاغته فحسب ؟ . وهل كان هدفه أن يترك للناس نماذج من حسن

البيان يتغنون بها في الحب ، أو الوصف وفي المديح أو الهجو
وفي الحماسة أو في الدعة والسكون ؟ ، وفيما إلى ذلك مما تركه لنا
رهمط من الشعراء الأولين أو كان أكثر عمقاً وأبعد غوراً .

لم يكن لدى من المعرفة ما يسمح لى أن أحكم عليه ولم أكن لاتمكن
كذلك من الحكم عليه ، بمجرد التعارف والمحاذثة وإطراء
المعجبين به ، ممن عاشروه ، وتفهموا قليلاً أو كثيراً من شعره .
رأيت فوجدته متوسط القامة ، لم يكن راني الجسم ولا ضامره ،
كان هادئاً قليل الكلام كثير التفكير ، تعلوه سمات العلماء المتواضعين ،
فما أن أتى دوره في الخطابة وألقى كلمته بالآوردية — وبها حديث
نبوى شريف ألقاه بالعربية ، وسأحدث عنه في كلمتي هذه — وفهمت
من بعض أصدقائي مغزاها حتى فهمته هو وأهدافه بعض الفهم ،
ثم أحبيته وشرفت بصداقته .

وبعد قليل رحلت إلى البلاد الهندية وبقيت فيها أربعة أشهر
ونصفاً ، وحظيت بلقاء هذا الصديق مرة أخرى في مدينة لاهور
الزاهرة ، فأخذنا نتحدث فيما يجب أن يعمل للأخذ بناصر فلسطين
منكودة الحظ .

وها أنذا أرجع اليوم اليكم اتلفت يمنية ويسرة للقاء هذا
الصديق العظيم ، لأستمتع بأحاديثه العذبة وعظاته البالغة فلا أجد
له حساً ، وأجد نفسي — والاسى يملأ فؤادى والالم يقض مضاجعى

واقفاً لأرثيه فأرثى الرجولة والطهر فيه . وكان الله جلّت قدرته
أزاد أن يرتفع بهذا الرجل الكريم عن هذه الأرض الفانية ، التي
دنستها الشهوات الوضيعة ، فلا يشهد بعينه ، ولا يسمع بأذنيه ما حل
بفلسطين من مآسى فاجعات .

وإن عزاءنا فيه هو أن روحه الطاهرة تطل علينا الآن من
جنات الخلد ، تبارك شعب الباكستان ، وتدعوه لتحقيق آماله فيه
وما كان ينادى به في حياته ، وما ضحى به في سبيله من راحته
ومن دنياه .

رأيتُه وصادقته ، ثم فهمت شيئاً عن خبايا نفسه التي بدت في
شعره ، فعجبت كيف لهذا الجسم المحدود أن يضم هذا العقل
الجبار ، والخيال الخصب ، والثروة الضخمة في البيان وفي الفلسفة ،
والنفس الثائرة التي لا تعرف هوادة ولا تؤمن بحدود ، في سبيل
النهوض بالمسلمين ، وإرشادهم إلى الطريق السوى ، الذي رسمه
الاسلام . وفي سبيل تعريفهم : كيف يكون الايمان ، وكيف يكون
شرف الاسلام وطهره وشهامته ونزاهته وجهاده وتضحياته في
العمل على رفع شأن الفرد وشأن الجماعة .

لقد قرأت عنه كثيراً ، وسمعت الناس يتغنون بأشعاره في
المدائح ، وفي مجالسهم العامة والخاصة ، وأعجبني عنه الكثير .
وسأعرض على المتكلمين باللغة العربية نماذج معربة من شعره

لنرى كيف أنه غفر العالم الاسلامى كله ، وأنه ينبغي على البلاد
الاسلامية أن تدرس ما خلفه من ثروة أدبية وفلسفية ، وأن تخلد
ذكره بإنشاء كرسي باسمه في الجامعات الاسلامية ، اعترافاً بما أسداه
للعالم الاسلامى من خير عميم .

وإني ليحزنى أن الظروف لم تساعدنى على تفهم اللغة الأوردية
والفارسية ، حتى أتمكن من أن أرشف من هذا المنهل العذب نفسه ،
لذلك لجأت إلى التراجم ، فاستقيت من ترجمة للأستاذ الشيخ الصاوى
على شعلان أحد علماء الأزهر الشريف ، وأحد الأعضاء البارزين
في جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية بالقاهرة — وهى من الجمعيات
التي أشرف برياستها — ورئيس تحرير مجلتها . لجأت إلى الترجمة
معتقداً أن المترجم مع علو كعبه فى الشعر والأدب لم يصل إلى
مكانة الأصل من سمو وخيال وبيان .

ويلوح لى أن فقيدنا لم يكن ينبغي من وراء شعره أن يلعب
بالقلوب والأحاسيس ، لكنه كان مريباً ماهراً ، وكان فيلسوفاً
مؤمناً مجاهداً ، جعل من نظمه قيثارة توصل حكمه للقلوب فتغذيها ،
وتهذب أذواقها ، وتهدى العقول إلى الوطنية والكرامة والاباء ،
والايمان والقوة والامل ، وكان بالآخرى صاحب رسالة أدبية
انشائية ، ووطنية اسلامية فى أرفع مظاهرها .

انظر اليه كيف يدفع المرء إلى الهمة والشهامة وطلب العلا
حين يقول :

صاح دعني اكتم الهم الدفين إن كأسى ليس يروى العابثين
من تكن همته نسج الحصير فهو لا يعلم مانسج الحرير
منزل الشاهين في أوج السحاب ماله يسكن في وكر الغراب
لم يزل في الروض ظل وثمر فالتمس عشك في أعلى الشجر
وحين يقول :

إن الجبان يموت في أوهامه حذر الممات وخوفه يغنيه
والحر تسعده المواطن كلها بالعيش حتى موته يحويه
وانظر اليه حين يؤمن بخلود النفس وبأن البقاء للأهم لا
للأفراد .

ويحض على التضحية في سبيل الدين والوطن :

حين يقول :

معيشة الفرد خيال والبقاء للأهم
فكن فداء المبدأ ال أعلى إذا نادى العلم
قم وانشر التوحيد في الد يا ووحده الأمم
هأت خير من دعا وأنت خير من حكم

وبقوله :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى غمرة الحرب والردى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوى درعه لا اله الا الله
وبقوله :

أيها الشاذى بقرآن كريم وهو كالصخرة فى البيت مقيم
قم وأبلغ نوره للعالمين قم وأسمعه البرايا أجمعين
والآن وقد انتهيت من اقتباس ما أحببت أن ألقيه إليكم من
أفكار الفقيه العظيم أود أن أتلو على مسامعكم الحديث النبوى
الشريف ، الذى تلاه فقيدنا العزيز باللغة العربية فى المؤتمر الإسلامى
العام بالقدس الشريف ، فقال : إن النبى الكريم ﷺ يقول للمسلمين :
« أنا حظكم بين الأنبياء وأتم حظى بين الأمم » . بيد أن فقيدنا
العظيم لم يوجه كلامه هنا للعرب فحسب ، كما فعل فى الشعر السابق
بل وجهه إلى العالم الإسلامى كافة .

ونحن إذا نظرنا إلى الشطر الأول من الحديث الشريف حق
لنا أن نفخر بالانتساب إلى دين الله ، وإلى هذا النبى الأسمى الذى
اختاره ربه خاتما للأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليه قرآنا عربيا مبينا ،
لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه — قرآنا حول الجاهلين
من الوحشية وفساد الخلق وعمادة الأوثان ، إلى وحدانية الله جل

شأنه ، وظهر نفوسهم من رجس الكفر والضلال ، ورفعهم إلى أعلى درجات السكال الانساني ، من القوة والبأس ، والطهر والاباء والحرية ، قرآنا سوى بين البشر ، فلم يعرف تفاوتاً بين الأجناس أو الألوان ، أو اللغات أو الأوطان ، بل جعل التقوى والعمل الصالح مدار التفاوت . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير .

هذا السمو في المبادئ هو الذي كان ينادى به الفقيد العظيم ، ويذكر به المؤمنين ، حتى يسيروا على هديه ، ويفهموا دينهم فهماً صحيحاً ، يؤدى بهم إلى أن ينهضوا نهضة عامة في طهارة النفس وقوة الجانب وغزارة العلم والمعرفة ، فيرتفع شأنهم أمام من لم يعرفوا حقيقة الاسلام ، ويكون خير مثل لخير هدى .

وإذا انتقلنا إلى الشطر الثاني من الحديث النبوى — وهو أن المؤمنين حظ النبي بين الأمم — لا نجد بداً من أن نتساءل : هل يرضى نبينا ﷺ بحظه منا نحن مساهى الأجيال الحاضرة وبيننا ما بيننا من تنافر وتدابير ، وتناوب وفقر وجهل وعزوف عن أوامر الله ونواهيه . وهل هو في مضجعه الطاهر معتز بنا غفور بحظه منا ؟ أو أنه يرى لحال أولئك الذين يلتصقون بدينه اسماً ، وتشهد عليهم أعمالهم بالزور والبهتان ، ويرأى إلى خالقه ما يعملون ويقتفون ، من

تبيد أمانة الاسلام المودعة بين أيديهم ، والمعلقة في أعناقهم .
وهل نحن — بالوضع الذى نحن عليه — مسلمون حقاً ؟ أو أننا
جناة على الاسلام ، وإن أخشى ما أخشاه أن تحل بنا نقمة الله ،
فيعود الاسلام غريباً في دياره .

أيها المسلمون في بقاع الأرض كافة : إننى أوجه إليكم نقمة
مصدور . كلمة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، ألا وهى : إننا
باهمالنا لديننا ، وبالبعد عن مبادئه قد أصبحنا فى حالة من الضعف
والانحلال لا يليها إلا الهاوية ، فليس لنا علم ولا قوة ، وليس لنا
فى النهاية دين . فانهضوا وتعلموا وتضامنوا ، واعتبروا بما وقع عليكم ،
وعلى من كان قبلكم من العقاب جزاء وفاقا .

اتعظوا بالآندلس ، وانظروا : كيف ضاعت نتيجة الشقاق
والإطاع الشخصية ، والبعد عن مبادئ الدين الحنيف .
وانظروا إلى محنة فلسطين ، واجعلوها عبرة العبر .

انظروا إلى ما بقى لديكم من تراث ، وكيف أنكم قد أصبحتم فى
مشارك الأرض ومغاربها ، وفى شمالها وجنوبها ، فى حالة من الضعف
والوهن ، إن لم نتدارك فيها أنفسنا أضعنا ما بقى لنا من تراث ،
وأصبحنا سخرية العالمين .

وان عزاءنا الوحيد هو فى رجاء أن تكون تلك اللحظة القائمة
من تاريخنا لحظة الظلام الذى يسبق طلوع النهار والضياء منتشر .

وأما أنت أيها الراحل الكريم فانك بيننا حتى لم ترحل ولم تمت
، فإليت ميت الأحياء .

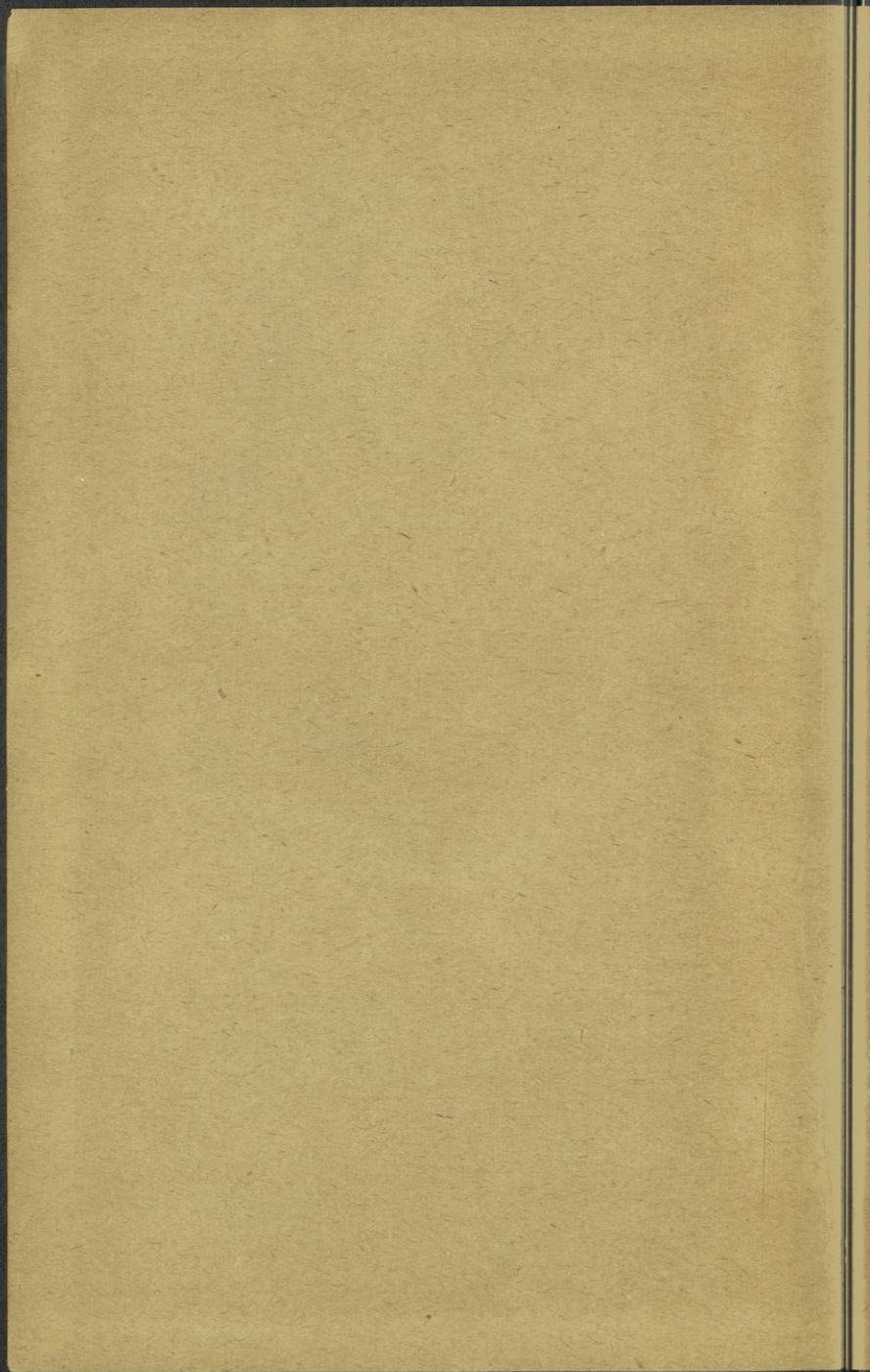
لقد رفعك ربك يا إقبال إلى جواره ، واستجاب لدعائك
بخلق الباكستان .

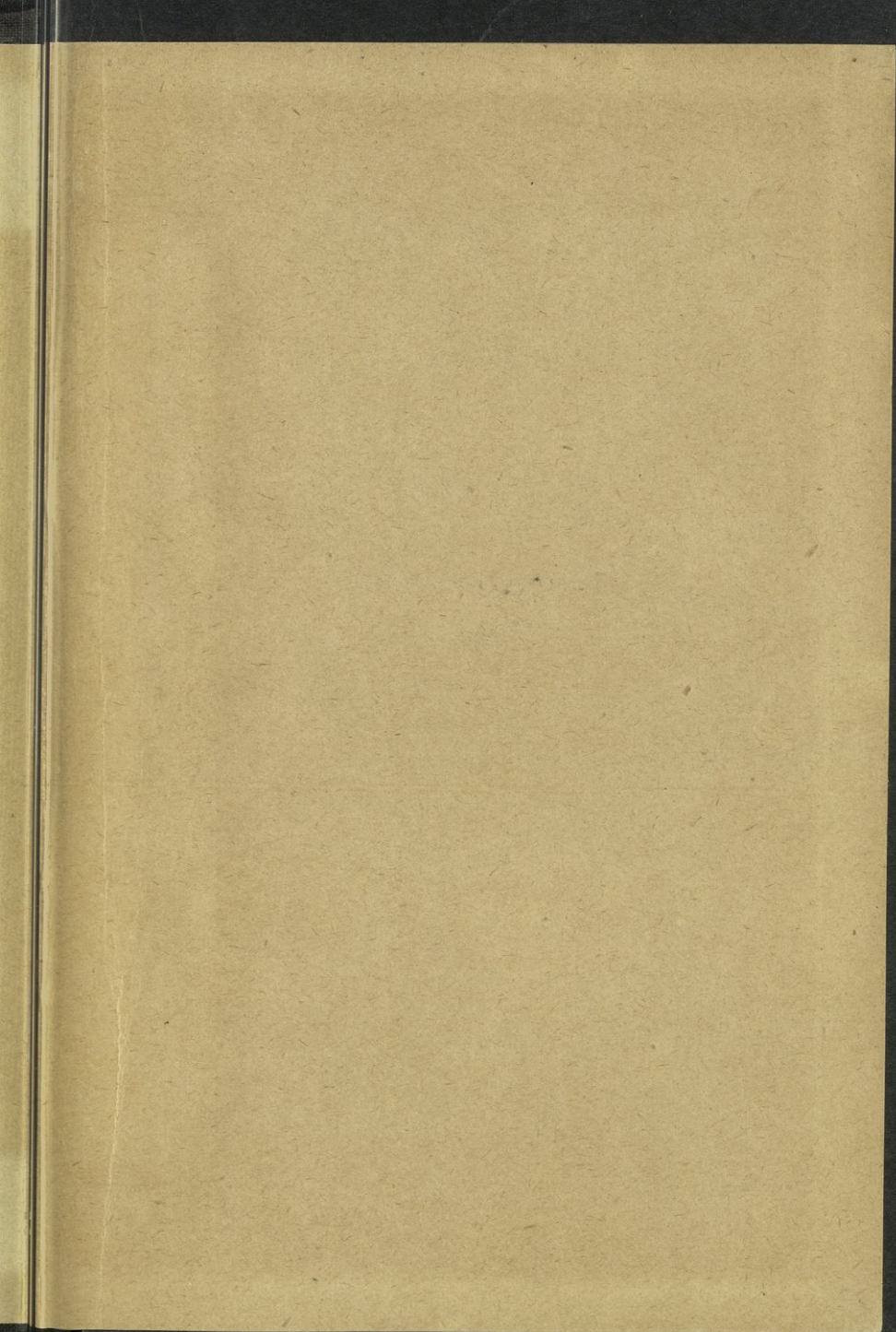
فلترقب روحك الطاهرة أعمال المسلمين في جميع أقطار
الأرض .

راقب واشهد وأنت بجوار ربك وفي رحمته ورضوانه ، لترى
هل هؤلاء الأحياء بعدك هم الأموات أو أنهم سيعلمون أن الله
سيبدل عسرهم يسرا حين يعدون العدة ، ويطيعون الله ورسوله
ويغيرون ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم
أمنا ، ومن بعد ضعفهم قوة ، أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا
ما بأنفسهم . فيحيوا حياة حققة ، يرضون فيها دينهم وديناهم .

ألا رحمة الله عليك يا إقبال . فقد كتب لك الخلود بعد أن
أفانيت جسمك لدينك ولأمتك . طيب الله ثراك ، وأنزلك منازل
الصديقين والشهداء ، والصالحين .

والسلام على من اتبع الهدى ..





321.82:A47iA:c.1
علوية، محمد علي (باشا)

الإسلام والديمقراطية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01014830

American University of Beirut



321.82

A47iA

General Library

321.82
A47iA
C.1